الرهبانية واعمال الرسالة

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس انطوش جبيل

طلعت الرهبانية اللبنانية في سماء الطائفة المارونية لا بل في الديار الشرقية كالنجوم اللامعة في ليلة صافية الأديم ، تنبعث من جدران اديارها انوار الفضيلة والتقى وتفوح من حياة ابنائها رائحة المسيح الطيبة فتعشقتهم القلوب وتحالفت على حبهم . وبدأ نطاق هذه الرهبانية يتسع تدريجاً « وتنمو كالشجر المغروس على مجاري المياه الذي يؤتي ثمره في اوانه وورقه لا يذبل » (مز ١ : ٣) وامتدّ سلطانها الروحي في لبنان ، فارتفعت على رؤوس الجبال وفي خفضات الاودية اديارها ومحابسها ومعابدها كالمنائر العالية ترمي اشعّتها حتى الى الامكنة البعيدة . وتصاعدت اصوات نواقيسها من على قمم التلال ومن فجاج الاودية يحمل رنينها الهواء مذكّرًا الناس بفرض العبادة والصلاة ، فأقبل المؤمنون على كنائسها يقضون فيها واجباتهم الدينية وقد راقهم جمال وجلال حفلاتها الخاشعة فصلّوا واعترفوا وتناولوا القربان الاقدس وشهدوا قداديس متتالية على مذابحها ولا يزالون . وطالما سمعوا كلمة الله من فم كهنتها الرهبان فعادوا الى بيوتهم بقلوب ملأى بعواطف الايمان ، حاملين لعيالهم تذكارات العبادة اللذيذة وامثلة الرهبان التقوية . فكان الشعب يجلّهم ويحترمهم ويقصد كنائسهم من مسافة يومين وثلاثة لوفاء فرضه لربه[1] .

وبما ان غاية الرهبانية لم تُحصر في دائرة الزهد والنسك فحسبُ ، بل

١) تاريخ الرهبانية ، ج ١ : ص ١٢٦ وما يليها

اوجبت القوانين على الرهبان الرسالة احياناً عندما تدعو الحاجة الى ذلك . كان البطاركة والاساقفة ينتدبونهم في كل عصر لهذه المهمة الشريفة فارسوهـا في حلب ومصر واللاذقية والشام وقبرص وصيدا وعكا وفي قرى لبنان ومدنه . وحيثما حلّت قدمهم يؤسسون الاخويات والجمعيات ويشركون المؤمنين بشركة الحبل بلا دنس والوردية وثوب السيدة ، لا يوهنهم عياء في التعليم والارشاد ، ويغسلون الصدور من الضغائن والاحقاد باذرين مواضعها بذور الحبّ المسيحي ، قاطعين دابر النزاع والخصام معيدين مياه السلام الى مجاريها معتبرين الشعب بافعالهم واقوالهم .

واذا راجعنا تاريخ الرهبانية من عهد نشأتها رأينا ان الاب بيين الاهدني ورفيقيه قبلوا في شركة الوردية الفاً ومئتي شخص في قاطع بكفيّا ، ١٠ خلا بيت شباب ، في مدة خمسة عشر يوماً . وفي اقامة الاب عبدالله قراعلي في ديرنا رشميًا كان يعظ في كنيسة القرية القريبة منه فيتوافد الناس على سماعه للتأثير الناتج عن كلامه ومن طهارة سيرته[1] . ولمّا صار اسقفاً انتدبه البطريرك يعقوب عوّاد لفضّ دعوى كنيسة الموارنة في الشام ، فارجعها اليهم بسعيه وحذقه . ودعا رئيس عام الرهبان اللبنانيين القس جبرائيل فرحات الى دمشق[2] ، فاقام فيها يخدم موارنتها الخدمة الروحية . وكان يعظ في ايام الاحاد والاعياد وفي كل يوم جمعة من الصيام الكبير فيزدحم النـاس من جميع الطوائف في كنيسة الموارنة لسماع كلام الخطيب الذي طالما افتخرت به اعوادُ المنابر[3] ولا يخرجون الا وهم سكارى بخمرة بيانه التي أدارها عليهم بخطبه الجامعة الى قوّة المعاني الروحية بلاغة الفصاحة العربيـة . وهو اول من وعظ عن آلام المسيح في كل يوم جمعة من الصوم عند المساء ، واول من انشأ في مدينة دمشق شركة الوردية وثوب السيدة ، بحسب الاذن المعطى له من رومة[4] . واذاع هذه العبادة للسيدة

١) التاريخ المذكور ص ١٤٠ ، وترجمة قراعلي للاب اليودي (المشرق ١٩٠٧)

٢) دخل دمشق في ٣ شباط ١٧١٩

٣) للاب فرحات كتاب في صناعة الوعظ يسمى « فصل الخطاب » ، الطبعة الاخيرة لسعيد الشرتوني سنة ١٨٩٦ ٤) انعم عليه الكرسي الروماني بلقب « مرسل رسولي »

العذراء في كل الطوائف الكاثوليكية . وكأنَّ ابليس غاظه ما ينجم من الفوائد الروحية للمسيحيين بواسطة هذا الاب فحرَّك بعض الحسّاد والمتعنتين فوشوا به وشيّعوا عنه كذباً وافتراء انه يقبل بدلًا من المؤمنين الآخذين بهذه العبادات . ولكنه لم يحفل بهم بل ظلَّ ماضياً في خطته بالوعظ والتعليم الروحي وسماع الاعتراف ، وقد عناهم بكلام الشاعر القائل :

اني لأرحمُ حاسديَّ لمرِّ ما ضمَّت صدورهمُ من الاوغار
نظروا منيع الله بي فنيوتم في جنَّةٍ وقلوبهم في نار

انتشر صيته في دمشق بالفضل والعلم واستقرَّ في الاذهان ذكره واحلَّه اهلها المنزلة العليا من قلوبهم فقابل اكرامهم بالثناء عليهم ويوصف محاسن مدينتهم بشعرٍ ضمَّنه الطف الشعر واظرف المعاني . وهذا مطلع قصيدته :

حيِّ الديار ديار جلَّقَ واسترد فيها المنى من سفح ذاك الوادي[1]

وقدم اليه بعض الطلَّاب فألقى عليهم دروساً في صرف لغة العرب ونحوها[2] .

وكأنَّ مناظر جنَّات دمشق ورياضها وغياضها الرائعة نالت من قلبه فاندفع يصفها ايضاً بأرق الشعر معرِّضاً ومقرِّعاً بكلام آلم من الوط بعض الحسّاد والمبتدعين المستقلين سكنه فيها يعلّم ويعظ المسيحيين[3] . وبعد ان اتمّ مهمّته فيها برحها في اول آب ١٧١٩ عائداً الى ديره ورهبانه . وممن خدموا موارنة دمشق من الرهبان الاب بيين الاهدني ، والاب مكسيموس رابد من حلب ، فغار على خدمة المطعونين غيرةً عظمى فاحبه اهلها واجلّوه وبقي ذكره حياً عندهم طويلًا لاجلها .

ومن اراد الوقوف على المحلَّات التي مارست فيها الرهبانية الرسالة وما نجم عنها من الخير والاصلاح عليه بالمجلَّد الاول من تاريخها لحضرة جامعه الاب لويس بليبل .

---

١) اطلب الديوان ص ١٥٩

٢) راجع تاريخ حادثة استرجاع كنيسة دمشق المارونية للاب فرحات وما كان من امره هناك (المجلة السورية لصاحبها المحوري بولس قرألي ، السنة الاولى والثانية منها صفحة ١٦-٢١ و ٩٦-١٠٢)

٣) الديوان ص ١٧٨ و١٩٦

والى القارئ كلمة عن رهبانيتنا البلدية اللبنانية في هذا الموضوع فنقول : ان اخواننا الرهبان تعاطوا عمل الرسالة الشريف بنفس الغيرة والتضحية التي كانت لآبائهم الاقدمين فانبثوا في كل ناحية من لبنان ، حتى وفي خارجه ، يبشرون بكلمة الله عاملين على بثّ روح المسيح الطيّب ، داعين المؤمنين الى التوبة وافعال الرحمة ونبذ الشقاق والخصام فبرهنوا على مقدرة وكفاءة بالعلم والفضل كالآباء اغناطيوس التنوري ، ومبارك ابي سليمان ، وانطونيوس حرفوش ، وبطرس ساره ، ولويس البتروني الذي صرف نحواً من ثلث قرن في الرسالة الروحية ، فاذاب حياته سكيباً طيباً على مذبح محبة النفوس ويكاد ان يكون شهيداً في هذا السبيل المقدّس ؛ وبطرس زهره ، وبطرس الحائك البجدرفلي ، ويوحنا العنداري ، واغناطيوس خليفه الحدتوني ، وبطرس بصبوص ، وبطرس الخوري ، ويوسف ملكون السرعلي ، ويواصاف كرم ، وبولس البزعوني ، وعبد الاحد مطر التنوري ، وجبرائيل مجلي السرعلي ، وطوبيا الرعشيني ، وبولس كفوتيس ، ولويس بليبل ، ويوحنا ابي غانم ، ومارون ابي كرم ، ومبارك ثابت الخ ... ولم تحرم من عظامهم كنائس المدن والقرى الكبرى كبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وزحلة وبكفيا وبكنتا وغوسطا وديفون وعجلتون ودير القمر وزغرتا وشرتي واللاذقية ودمشق وبعلبك وغيرها .

واما الذين يخدمون النفوس الخدمة الروحية من ابناء الرهبانية فكثيرون وكلهم غيرة في خدمتهم الجليلة هذه [1] ، ولذلك لم يتمالك الشعب والسادة الاساقفة عن ابداء سرورهم بهم وبالرهبان المرسلين مثنين على الرهبانية بقلمهم ولسانهم اطيب ثناء شاكرين لرئيسها العام . ولدينا منهم رسائل عديدة بهذا المعنى نذكرُ منها رسالةً مؤرخة في ٤ شباط ١٩٢٤ ارسلها موارنة زحلة والمعلّقة والبقاع الكرام الى قدس الاب العام اغناطيوس التنوري ، قالوا فيها :

« اقراراً بالجميل نبدي عاطفة الامتنان من تلطّف قدسكم وحضرات الاباء المدبرين اذ تتنازلون في اول كل تشكيل يحصل وترسلون الينا من ابناء رهبانيتكم العزيزة كهنةً من

---

١) من ابناء رهبانيتنا الذين خدموا الموارنة في القطر المصري القس توما الصيداوي سنة ١٧٩٦ (المجلّة البطريركية : السنة السادسة ص ٢٥٧ و ٢٦١) .

ذوي الفضل والفضيلة يعتنون بشؤوننا الروحية ويقومون بخدمة نفوسنا حقّ القيام . فلا يسعنا والحالة هذه الا ان نقدر هذه النعمة قدرها ونثني الثناء العاطر على نشاط ابنائكم الكهنة النيورين . فاظهاراً لمعرفة الجميل نشر آلوية الحمد والشكر تمذيعين فضل ابناء رهبانيتكم المقدسة الذين هم رائحة المسيح الطيبة ونجأر بالدعاء الحميم الى الله ليطيل حياة قدسكم لترداد هذه الرهبانية الشريفة في ايامكم خيراً وصلاحاً وتقدّماً ونجاحاً اذ برهبانها الافاضل وقدّيسيها العظام يزهو مجد الطائفة ويعلو شأنها ويتعزّز نفوذها . . . »

اما المحلات التي يخدم فيها رهباننا النفوس باذن البطاركة والاساقفة فهي :

في عكار والجبة

عودين . جنين . سيدة القلعة . منجز . كفرنون . الدبابية . البياضية (العلويين) . عشاش . كفرحبو . كفرياشيت . كفرشخنا . النخلة . بحرصا . كسبا . كفرحاورن . بشنين . حوقا . بان . الفريديس . النهر . العربة . سرعل . رشعين . الخالدية . قنوبين .

في جبيل والبترون

تنورين التحتا . وطاحوب . الزكزوك . المجدل . دوما . قندولا . ميفوق . رام . داريا . كفربعال . مار مقيم . العوينة . طرزيا . وعية السيدة في قرطبا . جنّة . مزرعة عبود . مدينة جبيل . حبوب . مهرين . معاد . عين كفاع . كفركدة . جدايل . المجر . حنوش . شموت .

في كسروان

قسماً من اهل غوسطا . بطحا . غباله . اغبه . عجلتون . الدّ . المعاملتين . النهر . زوق الخراب . ديك المحدي . ميروبا .

في الشوف وجزين وما اليها من الجنوب

رشميا . عين تراز . كنيسة القديسة تقلا . الكحالة . الرويسة . مغرايا . بجتين . عاريه . روم . مشموشة . لبعا . وادي جزين . عين دراقيل . النبطية . الحمرا . المنصوره . بيت لهيا . حوش القنابه . البرامية . بقسطا . الحبابيسة . علمان . البرغوتيه . الجميليه . المغيريه . بسري . الخربة . مزرعة بسري . تعيد . صبّاح . الحمصية . الحرف . بتدّين اللقش . بتدّين المير . النساعة . ياروتة . كفرمتى . كنيسة القديسة تقلا في جلّ البحر . شرتون . الدوير . يدادون .

عين زبدة . عين سعاده . عاليه . حاصبيا وادي التيم . قوزح . رميش . صفد . كفربرعم . القليعة . الخيام . جردا . ابل السقي . وادي شحرور . بيت شول .

في البقاع

زحلة . المعلقه . نيحا . مدينة بعلبك . الكرك . ابلح . تربل . مجدلون . سرعين . دورس . قبعات . بتدعي . حوش الامراء . وادي العرايش . نهر الذهب — ثم موارنة يافا وقبرس . كنيسة دير طاميش في الكرنتينا ومدرستنا ببيروت ، ويساعد رهباننا خوارنة كنائسها بالواجب الروحي .

في المتن

الحلّة . بنابيل . المروج . عين الصفصاف . الميرون . مدرسة نعيم بك صوايا بعبدات . رعية بيت الاشقر بيت شباب . العطشانة . رعية مدرستنا في المتين . قبيع . الكحلونية . صوفر . جوار الحوز . الشانيبة . بريح . حمّانا . العباديّة . قتاله . حارة حمزة . القريّة . محطة بحمدون . بحرصاف . حارة صادر . عمارة شلهوب . مار يوسف ومار سابين بسكنتا . . . الخ

وهناك من الرهبان من ذهبوا ضحية الامراض السارية كالجدري وغيره كالاب اغوسطين حليحل الحاج البسكنتاوي ، الذي مات في زحلة بعدوى الجدري متفانياً بخدمة المرضى فيه روحاً وجسداً .

واشتهر كثيرٌ من ابناء رهبانيتنا بفنّ الخطابة كالمرحوم الاب العالم اسطفان متى البتاعلي احد تلامذة كلية القديس يوسف . فانه قد تعاطى الرسالة من حين سيامته كاهناً ، ولا يزال الناس الى يومنا يذكرون مواقفه الخطابية المشهودة على منابر كنائس لبنان الكبرى بعاطفة الفخر والاعجاب ، مترحمين على ذاك الخطيب المفوّه الذي كان يتدفق الكلام الفصيح من فمه تدفّق السيل المنهمر فيرسله الى الآذان بصوته الجهوري درراً تطرب لها النفوس . وقد رافق في الرسالة الخوري فرنسيس الشالي (المطران جرمانوس) الخطيب المشهور فأعجب بقوّة عارضته وفصاحة عبارته وابتكار معانيه ونبرات صوته . اضف الى كل ذلك الوقار والرصانة والمهابة التي تزينه والابداع في الحركات والاشارات المرافقة المعاني والعبارات التي اجادها هذا الاب الخطيب .

وعندما سُقّف الشهالي مطراناً على حلب حضر لتهنئته ووداعه الاب اسطفان فقال له : « انك ستخلفني في عمل الرسالات في لبنان » وكتب اليه من حلب يذكّره بصفاء ايام قضياها معاً في الرسالة ناعمين مسرورين . تجولُ حلاوة هذه الذكرى في خاطر الحبر الشهالي فتدمعُ عينه حنيناً واشتياقاً الى لبنان فيذكر له فيه عهودًا بالحمى عبرت [1] . وقد قال يوم وداعه لبنان الى حلب بحضرة رفيقه الاب اسطفان :

تنازع مهجتي سفرٌ ومكثٌ وجمعهما يُعدُّ من المحال
واذ أزف الترحّلُ فاض دمعي وقال مودّعي عند ارتحالي
ألا تبقي لمن ودّعتَ ذكرًا أرختُ لي خذوا قلب الشهالي [2]

ولم يغفل رهباننا عن تأسيس الاخويات حثًّا على العبادة لمريم العذراء التي اشتهر بها ابناء طائفتنا . فان الاب اثاناسيوس الشموني انشأ اخوية الجبل بلا دنس في مدينة جبيل والاب يوسف البشرّاوي في دشميا . ومن زمن ليس ببعيد احتفل اهل هاتين البلدتين بالتذكار المئوي لتينك الاخويتين.

وقد فتحت الرهبانية اديارها في بلاد جبيل والبترون والجبة وغيرها للكهنة العاملين لعمل رياضتهم السنويّة يلقيها عليهم اباؤنا الافاضل ، فيخرجون منها وكلّهم السنة شكر للرهبانية.

ومن آباء رهبانيتنا الذين زاولوا الرسالة سنين عديدة قدس الاباتي المفضال اغناطيوس داغر التنّوري المشهور بفضيلته . فكان المثلّث الرحمة البطريرك المغبوط الياس الحويك يُسند اليه هذه المهمة فينهض بعبئها افضل نهوض ، وكانت قداسة سيرته افصح خطيب يحمل الناس على العبادة . وكم من قرًى ساد فيها الخصام وتأصّلت جرثومته فاستأصلـه ، ومن مشاكل تعقّدت فحلّهـا بحكمته وفطنته ، وله في كلّ محلّ بذر فيه كلمة الله آثارٌ تُذكر.

هذا بعضٌ من عدّ ممّا تأتيه رهبانيتنا من الفوائد الجمّة للطائفة في مباشرتها الرسالة ، « فما اجمل اقدام المبشرين بالسلام.» (رومية ١٠ : ١٥)

١) « الدرر النوالي » من حيـاة المطران جرمانوس الشهالي ، للخوري بشارة الشهالي (المطران بشارة) المطبعة الشرقية ١٩٠٢ ص ١١٦ و ١٢٠

٢) ديوان « نظم اللآلي » للحبر الشهالي ، المطبعة المارونية حلب ١٨٩٥ ، ص ١٩٥